

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة ﴿ D ﴾ المانعين من تسميته بالرحمن { ادعوا ا } أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنی { أي لا فرق بين دعائكم له باسم ا } أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنی كما قال تعالى : { هو ا } الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو ا الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان ا عما يشركون * هو ا الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنی يسبح له ما في السماوات والأرض { الآية وقد روى مكحول أن رجلا من المشركين سمع النبي صلى ا عليه وسلّم وهو يقول في سجوده : [يا رحمن يا رحيم] فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل ا هذه الآية وكذا روى عن ابن عباس رواهما ابن جرير .

وقوله : { ولا تجهر بصلاتك } الآية قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسول ا صلى ا عليه وسلّم متوار بمكة { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها } قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به قال : فقال ا تعالى لنبيه صلى ا عليه وسلّم : { ولا تجهر بصلاتك } أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن { ولا تخافت بها } عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك { وابتغ بين ذلك سبيلا } أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس وزاد : فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أي ذلك شاء .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول ا صلى ا عليه وسلّم إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول ا صلى ا عليه وسلّم بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع فإن خفض صوته صلى ا عليه وسلّم لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئا فأنزل ا { ولا تجهر بصلاتك } فيتفرقوا عنك { ولا تخافت بها } فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به { وابتغ بين ذلك سبيلا } وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة : نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة وقال شعبة عن الأشعث بن أبي سليم عن الأسود بن هلال عن ابن مسعود لم يخافت بها من أسمع أذنيه .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن سلمى بن علقمة عن محمد بن سيرين قال :

نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقراً خفض صوته وأن عمر كان يرفع صوته فقليل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي D وقد علم حاجتي فقليل : أحسنت وقليل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرده الشيطان وأوقف الوسنان قيل : أحسنت فلما نزلت { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتنع بين ذلك سبيلاً } قيل لأبي بكر : ارفع شيئاً وقليل لعمر : اخفض شيئاً وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس : نزلت في الدعاء وهكذا روى الثوري ومالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة B أنها نزلت في الدعاء وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير وقال الثوري عن ابن عباس العامري عن عبد الله بن شداد قال : كان أعرابي من بني تميم إذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال : [اللهم ارزقنا إبلاً وولداً] قال : فنزلت هذه الآية { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها } .

(قول آخر) قال ابن جرير : حدثنا أبو السائب حدثنا حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة B ها : نزلت هذه الآية في التشهد { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها } وبه قال حفص عن أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين مثله .

(قول آخر) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها } قال : لا تصل مراعاة للناس ولا تدعها مخافة الناس وقال الثوري عن منصور عن الحسن البصري { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها } قال : لا تحسن علانياتها وتسيء سريرتها وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به و هشيم عن عوف عنه به و سعيد عن قتادة عنه كذلك .

(قول آخر) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : { وابتنع بين ذلك سبيلاً } قال : أهل الكتاب يخافتون ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ويصيحون هم به وراءه فنهاء أن يصيح كما يصيح هؤلاء وأن يخافت كما يخافت القوم ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة .

وقوله : { وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً } لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال : { وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك } بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد { ولم يكن له ولي من الدن } أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ومدبرها ومقدرها وحده لا شريك له قال مجاهد في قوله : { ولم يكن له ولي من الدن } لم يحالف أحد ولم يبتغ نصر أحد { وكبره تكبيراً } أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

قال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني أبو صخر عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية { وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً } الآية قال إن اليهود والنصارى يقولون اتخذوا ولداً وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وقال الصابئون

والمجوس : لولا أولياء الله لذل فأنزل الله هذه الآية { وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا } وقال أيضا : حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه الآية { الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا } الآية الصغير من أهله والكبير قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى هذه الآية آية العز وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا بشر بن سحان البصري حدثنا حرب بن ميمون حدثنا موسى بن عبيدة الزبيدي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال : [خرجت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في يدي أو يدي في يده فأتى على رجل رث الهيئة فقال : أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : السقم والضر يا رسول الله قال : ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ قال : ما يسرني بها أن شهدت معك بدرا أو أحدا قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ قال : فقال أبو هريرة : يا رسول الله إياي فعلمني قال : فقل يا أبا هريرة توكلت على الحي الذي لا يموت الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا قال : فأتى علي رسول الله وقد حسنت حالي قال : فقال لي مهيم قال : قلت يا رسول الله لم أزل أقول الكلمات التي علمتني [إسناده ضعيف وفي متنه نكارة والله أعلم آخر تفسير سورة سبحان و الحمد والمنة